

دراسة في الأسس والمفاهيم

د. مصطفى غربي

- قسم اللغة العربية وآدابها

جامعة سيدي بلعباس

اهتم الإنسان بدراسة اللغة اهتمامه ببقية مناحي الحياة الأخرى، فأوجد النظريات التي تسعى إلى تقريب المفاهيم والإحاطة بقضايا اللسان من كل جانب، وفي كل اتجاه... كما أبدع في تنوع الإجراءات المنهجية التي تجعل من الظاهرة اللغوية ميدانا واسعا، ومرتعا خصبا، للوصف والتحليل والممارسة....

وقد يكون من الضروري - في هذا المقام - اختزال الحديث عن جانب من تلك الجهود والاجتهادات الحثيثة فيما يطرحه علم اللغة التطبيقي من قضايا تعليمية، لا تزال تشغل بال الدارسين وتُحفّزهم على الإمعان في المقدمات، واستخلاص النتائج، عبر مسارات رئيسة، لعل أبرزها وأكثرها حضورا ما يلي:

- اللسانيات التطبيقية أو علم اللغة التطبيقي مصطلح ارتبط ظهوره في العقد الخامس من القرن الماضي بمجال تعليم اللغات الحية، للناطقين ولغير الناطقين بها، يقول الدكتور صالح بلعيد في هذا المنحى: «اللسانيات التطبيقية موضوع حديث وطريف، لم تظهر فيه مؤلفات كثيرة باللغة العربية، اللهم تلك المترجمة، في الوقت الذي أصبح علم اللغة التطبيقي، في أوروبا، من التخصصات المهمة في الجامعات وفي مراكز

البحوث، والمؤسسات المعنية باللغات الحديثة، تدريسا وبجثا... وتصدر فيه مؤلفات كثيرة تطبيقية، كونه يعمل على ترجمة العلاقة بين الجانب النظري والتطبيقي، وفق مستويات تتناول العلاقة بالمسألة والمفاهيم، وإلى جانب هذا فإنه يتصل بمجالات الحياة المختلفة¹.

- إنه علم يهدف إلى إفادة مواقف التعلم اللغوي، عن طريق الاستعانة بمناهج علم اللغة الحديث، ونتائج أبحاثه ودراساته، فهدفه، كما يحدده مازن الوعر، «هو إيجاد أفضل التقنيات والمناهج اللسانية، لتطوير العملية التعليمية للغات القومية في المراحل الابتدائية والإعدادية والثانوية»².

- ميدان علم اللغة التطبيقي أوسع وأشمل، فهو يتجاوز البحث في التطبيقات الوظيفية التربوية للغة من أجل تعليمها وتعلمها للناطقين ولغير الناطقين بها، إلى البحث في الوسائل البيداغوجية المنهجية لتقنيات تعليم اللغات البشرية وتعلمها، مثل أصول التدريس ومناهجه، ووضع النصوص اللغوية وانسجامها مع المتعلمين، ووضع الامتحان وامتحان الامتحان، وعلاقة التعليم بالبيئة الاجتماعية³.

- إن علاقة اللسانيات التطبيقية بعلم اللغة العام علاقة وطيدة ومتكاملة، فكلاهما يسعى إلى محاولة كشف جوانب اللغة، نظريا وممارسة وأداء، ذلك أن علم اللغة العام كما يوضحه أحمد حساني يمثل «وسيلة معرفية ومنهجية ضرورية لتحديد المجال الإجرائي للعملية التعليمية، وذلك بتوضيح الغايات والأهداف البيداغوجية من جهة،

وتذليل الصعوبات والعوائق من جهة أخرى، لأنه بدون لجوء معلم اللغة إلى النظريات اللسانية المختلفة، سوف يعسر عليه إدراك العملية التلفظية للغة عند المتكلم والمستمع، ويعسر عليه أيضا تحديد العناصر اللسانية التي تكون نظام اللغة المراد تعليمها، وذلك بالارتكاز على إسهامات النظرية اللسانية في مجال وصف اللغة الإنسانية وتحليلها، وهو التحليل الذي يعمق معرفتنا باللغة البشرية⁴، ويستشهد أحمد حساني في هذا المنحى برأي أحد منظري اللسانيات في قوله: « إن بين أيدينا اليوم زادا ضخما من المعارف المتعلقة بطبيعة الظاهرة اللغوية وبوظائفها لدى الفرد والجماعة، وبأنماط اكتساب الإنسان لها، وعلى معلم اللغات أن يستنير بما تمده به اللسانيات من معارف علمية حول طبيعة الظاهرة اللغوية»⁵.

- لقد توزعت حركة التأليف في موضوعات اللسانيات التطبيقية على ضربين من ضروب التصنيف وهما :
 - أ. مؤلفات في صميم اللسانيات التطبيقية - فرع التعليمية - ...
 - ب. مؤلفات لها علاقة باللسانيات التطبيقية ...
- تبرز أهمية اللسانيات التطبيقية - منذ بداياتها الأولى - في حرص الباحثين من مختلف الأقطار على ترقية التعليمية، واستثمار نتائجها في تيسير اكتساب اللغة للناطقين ولغير الناطقين بها على حد سواء، وقد رافق تلك الجهود الحثيثة والاهتمامات المتزايدة نشاط متعدد، شمل عقد ملتقيات ومؤتمرات، وحركة تأليف واسعة، تعالج موضوعات علم اللغة التطبيقي من جوانب مختلفة.

يتضح، إذن، أن التعليمية حقل من أهم حقول اللسانيات التطبيقية، درجت جهود الباحثين على تسميتها بمصطلحات عديدة، ومن منطلقات مختلفة، من ذلك :

- تعليمية اللغات، علم تعليم اللغات، تعليم اللغة، تعليمات أو تعليمية، علم تعليم العربية، لسانيات تعليمية، لسانيات تعليمية اللغات، التعليمات، لسانيات تعليمية خاصة، لسانيات تعليمية عامة...

والمؤكد أن تلك الجهود الحثيثة والمتعددة قد أفضت، من جهة أخرى، إلى اكساب تعليمية اللغات الشرعية المنهجية بين مختلف أنواع العلوم اللغوية، يقول عبده الراجحي: «إن تعليم اللغة الآن (علم) له أصوله وله مناهجه، أفضت إليه جهود متتابعة من البحث الدائب عند الأمم المتقدمة، وهو يفتح كل يوم مجالا جديدا، ويكشف كل حين عن جانب كان مجهولا، ونشهد الآن تأثيره البالغ على تعليم اللغات لأبنائها ولغير الناطقين بها»⁶.

وحاجة التعليمية إلى ما يدعم مقوماتها ويخدم أهدافها، ألزمها الانفتاح على فضاء متعدد من العلوم الإنسانية التي تتصل بحياة الفرد الاجتماعية والنفسية، يقول أحمد حساني في هذا المنحى: «إن تعليمية اللغات بوصفها وسيلة إجرائية لتنمية قدرات المتعلم قصد اكتساب المهارات اللغوية، واستعمالها بكيفية وظيفية، تقتضي الإفادة المتواصلة من التجارب والخبرات العلمية التي لها صلة مباشرة، وملازمة في ذاتها،

بالجوانب الفكرية والعضوية والنفسية والاجتماعية للأداء الفعلي للكلام عند الإنسان»⁷.

وقد اتسع البحث في تعليمية اللغة الخاصة منها والعامّة ليشمل مفاهيم ومصطلحات تمثل أس هذا العلم ومركزه، يعرف علي علي سيد أحمد التعليم بأنه « إجراءٌ تكنولوجي يستخدم ما كشف عنه علم التعلم، بالإضافة إلى ما كشفت عنه علوم أخرى لتحقيق أهداف تربوية»⁸، وهو يجعل التعلّم علماً « يبحث في ظاهرة تعديل أو تغيير سلوك الكائن الحي»⁹، ويعدد إبراهيم - من جانبه - أهداف التعليم فيحصرها في عناوين بارزة منها: اكتساب المعرفة، اكتساب المهارات، التفكير العلمي، تكوين الاتجاهات والقيم، تنمية الميول، اكتساب القدرة على التذوق، تقدير الجهد الإنساني...¹⁰.

إن نجاح العملية التعليمية وإدراك الفائدة المنشودة من ورائها، يحتاج بالضرورة إلى دعائم ومقومات يستند إليها المعلم والمتعلم في تحقيق الأهداف وتحصيل المهارات المختلفة.

والوسائل التعليمية بأشكالها وصورها المختلفة، تمثل عماد الدرس التعليمي وركيزته الأساسية، لها في جهود الباحثين وأنشطتهم تسميات عديدة منها: وسائل الإيضاح، الوسائل البصرية، الوسائل السمعية، الوسائل المعينة، الوسائل التعليمية، تكنولوجيا التعليم، يعرفها بعضهم على أنها أجهزة وأدوات ومواد يستخدمها المعلم لتحسين عملية التعليم والتعلم، وهي عند بعضهم الآخر تضم جميع الطرق والأدوات

والأجهزة والتنظيمات المستخدمة في نظام تعليمي، بغرض تحقيق أهداف تعليمية محددة ، ويجمع أحمد حساني هذا المفهوم المتعدد للوسائل التعليمية بقوله: «إن الوسائل التعليمية هي كل أداة يستخدمها الأستاذ لتحسين عملية التعلم وترقيتها، وذلك بتدريب المعلمين على اكتساب المهارات المختلفة واكتساب عادات معينة، تمثل مرتكزا جوهريا في العملية التعليمية»¹، ولعل من أبرز تلك الأدوات والأجهزة: التسجيلات الصوتية، جهاز عرض الصور الثابتة، المختبر اللغوي، الحاسب الآلي...

وينبغي في هذا المنحى التنبيه إلى أن حضور هذه الوسائل في المؤسسة التعليمية، وتوافرها بين يدي المعلم بالقدر الذي يستقيم به العمل وتتحدد به معالمة، قد لا ينفي بالضرورة الميل بها أو ببعضها عن الغرض المنشود والغاية المقصودة، وهو أمر يقتضي معاينة الواقع والتشديد على أهمية تلك الأدوات وحسن استغلالها بما يتوافق ووظيفتها المعلنة...

وقد يتحقق هذه الهدف من خلال التأكيد على جملة من القضايا الجوهرية من بينها:

1- واجب إدراك أهمية الوسائل التعليمية ودورها في تحقيق الأهداف، وإفادة مواقف التعلم المختلفة والطارئة، فمن علامات نجاح المعلم « أن يكون مقتنعا بأهمية وجدوى استخدام الوسائل التعليمية لأنها أهم أدواته، والتعليم بدونها لا يستقيم، ويصبح أمرا صعبا،

فالوسائل التعليمية أصبحت من صلب المناهج وليست أمراً هامشياً، فهي تساعد المعلم على التوضيح والتنفيذ وتنظيم الخبرات وتحسين وتطوير نوعية التعليم، لكنها ليست بديلاً للمعلم¹².

2- الحرص على الاحتفاظ بوظيفة الوسائل التعليمية باعتبارها أدوات تقرب المادة المعرفية وتسهم في الارتقاء بقدرات الاستيعاب لدى المتعلم، إنها « وسائل في ذاتها وليست غايات، ولذلك فإن استخدامها يكون لمواجهة حاجات تربوية معينة نشأت نتيجة للتغيرات الكثيرة التي ظهرت في هذا العصر... »¹³.

3- ضرورة إنزال تلك الوسائل المنزلة التي وجدت من أجلها، فلا ينبغي أن ينظر إليها « على أنها حلية تزين بها الفصول وجدران المدرسة ومكاتب الإدارة لإرضاء الزائرين، وهذا لون من ألوان الخداع وأحياناً الغش لا علاقة له بالعملية التعليمية والتربوية »¹⁴.

والمعلم عنصر فاعل من عناصر التعليمية الرئيسة، به يبدأ المشهد التلقيني وإليه قد ينتهي لينفتح على أطراف مؤثرة أخرى لا تقل أهمية عن سابقها ولا تخفى...

لقد درجت كثير من الدراسات الحديثة على النظر إلى حقيقة المعلم نظرة نمطية ثابتة ومن زوايا محددة وجاهزة، فهو في بعضها شخصية تلازمها صفات الرشد والذكاء والاتزان العاطفي وسلامة الجسم والحواس والنظافة والشعور بالمسؤولية والروح الاجتماعية والمرح والتفاؤل والنظام¹⁵، وما إلى ذلك من واجبات كإتقان العمل

والإخلاص فيه والاتجاهات الايجابية نحو طلب العلم والعدالة في المعاملة والثقة بالنفس والتواضع والصبر...¹⁶ ، والمعلم بطبعه الحاد واستقامته المعهودة، يفترض به « أن يحدد الهدف الذي من أجله سوف يقوم بتدريس ما سوف يدرسه، إن تحديد الهدف سوف يغنيه عن متاعب كثيرة، أو تدريس أشياء كثيرة قد لا تلزم»¹⁷ ، وحاصل ذلك كله فإن المعلم « يعلم أولا وقبل كل شيء أن عمله هذا رسالة قبل أن يكون مهنة، فهو يبذل أكثر مما يطيقه، ويبدع ليلعب رسالته على أكمل وجه»¹⁸ ، وقد يضيق سقف تلك الواجبات والحدود جميعها فنسمح لأنفسنا بالقول بأن المعلم « إذا أردناه متواضعا فلا نريده ذليلا، وإذا أحببناه وديعا فلا نجبه خاملا، وإذا دعونا للمرونة فإننا لا نرغب فيه مائعا بل نريده أيا دون كبر وشهما دون غطرسة، ونعتقد أن الأبي الشهم هو الذي يحترم نفسه احتراماً صحيحاً في ذاته أولاً...»¹⁹ .

إن هذا التوجه المثالي في تشكيل صورة المعلم ومراميه، قد يجب عن أنظارنا حقائق يتعذر تجاوزها لأسباب منها:

أولاً- المعلم، قبل كل شيء، إنسان تتحقق في ذاته وحدة الروح والمادة، فلا هو ملاك يعزف عن ملذات الحياة فلا يأكل ولا يشرب ولا يمشي في الأسواق، ولا هو يرضى أن يكون دون ما هو كائن عليه، فيلغي سلطة عقله أو يجمع عنفوان إرادته في الحياة ...

ثانياً- المعلم كائن يخضع لسلطان المزاج والانفعال، فهو يجب ويكره، ويقسو ويلين، يأمل - مثل غيره- في الحياة فيبلغ غايته تارة وقد ينكسر... إنه يختلف عن الصنم في الحركة والمثابرة وتقدير الأشياء...

ثالثاً- المعلم يخضع لواقع بني مجتمعه، برواسب ماضيه وتطلعات مستقبله، فهو يؤثر ويتأثر، يحمل همه وهم غيره، فتنوع اهتماماته بين دروب الحياة...
رابعاً- حاجة المعلم إلى حوافز مادية ترفع من مكانته، وتبعث في نفسه روح المبادرة والخلق والإبداع...

خامساً- ضرورة توفير ما يلزم من الوسائل التعليمية التي بها ينجح العمل وتحقق الأهداف، فالكتاب النموذج والإنترنت وغيرهما، أدوات مساعدة على تقريب المادة المعرفية وتوسيع دائرة البحث فيها...

سادساً- واجب إنزال المعلم منزلة مشرفة لرسالته، فعوامل التبريل والتقدير والاحترام لا بد أن تشعره بقداسة الرسالة التي يحملها ويؤديها... ألم يقل الشاعر:

قم للمعلم وفه التبجيلا كاد المعلم أن يكون رسولا؟

والمتعلم مرتكز من مرتكزات التعليمية العامة والخاصة على حد سواء، التفت إليه ابن خلدون -قديماً- فخصه بقوله: «اعلم أيها المتعلم أنني أتحدثك بفائدة في تعلمك، فإن تلقيتها بالقبول وأمسكتها بيد الصناعة، ظفرت بكنز عظيم وذخيرة شريفة، وأقدم لك مقدمة تعينك في فهمها»²⁰.

ولم تغفل الدراسات الحديثة -بدورها- البحث في شخصية المتعلم وما يتأبها من مشاعر ونزعات نفسية واجتماعية، تتصل بأبعاد وقضايا مثيرة للجدل، مثل الفروق الذاتية والموضوعية، الإرادة والطموح، الهواية والميول، الفضل والتأخر الدراسي، وقد يمثل هذان المظهران الأخيران

رأس تلك الانشغالات وعمودها، فتأخر المتعلم في دراسته يكون « كل جزئي أو كلي - بعد ما كان من العاديين - بسبب حدوث اضطرابات في أسرته ك وفاة أحد الوالدين، أو بإصابته بمرض مفاجئ يستدعي إدخاله المستشفى، أو بصدمة انفعالية حادة»^{1 2}، وقد عدد صاحب كتاب "التأخر المدرسي" عوامل هذه الظاهرة فقسمها إلى عوامل فردية، تصدرها الحالة الصحية العامة، وعدم الاستقرار النفسي - الحركي للمتعلم، وعوامل مدرسية في طليعتها الظروف المادية العامة^{2 2}.

والمؤكد أن أثر الفشل الدراسي لدى المتعلم، قد يتجاوز مداه ليصيب العملية التعليمية في صميمها ذلك « أن ارتفاع نسبة الرسوب في القسم تقلق المعلم وتجعله يشعر بأن جانبا من جهوده يضيع ويذهب سدى بدون جدوى، وهو قد يخشى أن تسوء سمعته المهنية، ويتعرض للوم وربما انتقاد إلى التشكك في كفاءته وقدراته، مما يؤدي إلى افتقاد الشعور الكافي بالأمن والاستقرار والجدارة، تلك الأمور التي هي من أساس العمل والإنتاج»^{2 3}.

وحقيقة الأمر أن النظر إلى المتعلم من زوايا ضيقة وموجهة، يُعد إجحافا صريحا في حق المشهد التعليمي كافة، مما يستدعي بالضرورة تقديم نظرة تقييمية وتقويمية تقرب المفاهيم، وتوسع دائرتها بكل موضوعية وصدق... من ذلك أن:

1- المتعلم جزء من منظومة تعليمية معرفية ومنهجية، وحضوره ضمن هذه المنظومة يشكل عماد البناء كله، مما يستلزم مدارس كل ما يحيط بهذه الشخصية من مؤثرات ونزعات وبدون إقصاء أو تقصير...

2- الميول عنصر فاعل من عناصر الشخصية، ودافع من دوافع النجاح وبلوغ المقاصد، له تأثيره الواضح في توجيه سلوك المتعلم نحو

الغاية التي يرتضيها لنفسه، والهدف الذي ينشده في الحياة، ومع غياب هذا العنصر أو تجاهله قد تنكسر الآمال، وتحل الخيبة، وينقطع الرجاء...

3- **الوازع المادي** يعتبر سببا من أسباب التفوق والتألق، فهو يوفر الوسائل المساعدة على العمل، وتجسيد الفكرة ومواجهة الواقع...

4- **هدف المتعلم** - في نهاية المطاف - أن يجني ثمار تعلمه بأشكال مختلفة وصور عديدة، فإذا حال حاجز بينه وبين تحقيقه الهدف، انقطعت به السبل واستبد به الخمول، وتملكه الضياع...

5- فشل المتعلم في دراسته قد ينبئ عن سوء تقدير لمكانة التعليمية العامة والخاصة في الوسط الذي يعيش فيه، مما يشيع روح الاستهتار والعزوف عن القيم الحضارية لمفهوم التعليمية ودورها في حياة الفرد والمجتمع على حد سواء...

هذه جملة من قضايا التعليمية العامة والخاصة، وقد يدفع القصور في الرأي إلى الوقوف عند هذا الجانب أو ذاك دون الالتفات إلى أثر العوامل النفسية والاجتماعية وغيرها في تشكيل المشهد التعليمي بمفهومه الشامل والمتعدد... عندها تضيق حدود التفكير السليم والنظرة الثاقبة، وتتقلص مساحة تقدير الحقائق وما يلازمها من حلول ناجعة...

هوامش

- ¹ - دروس في اللسانيات التطبيقية، صالح بلعيد، ص4، دار هومه للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر 2000م.
- ² - دراسات لسانية تطبيقية، مازن الوعر، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق 1989م.
- ³ - نفسه ص23.
- ⁴ - دراسات في اللسانيات التطبيقية - حقل تعليمية اللغات - أحمد حساني، ص140، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 2000م.
- ⁵ - نفسه ص41.
- ⁶ - علم اللغة التطبيقي وتعليم العربية عبده الراجحي ص8
- ⁷ - دراسات في اللسانيات التطبيقية - حقل تعليمية اللغات - أحمد حساني، ص1 ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 2000م.
- ⁸ - التعليم والمعلمون، علي علي سيد احمد، ص13، دار الصابوني (د ت ط).
- ⁹ - نفسه ص13.
- ¹⁰ - التربية العلمية وأسس طرق التدريس، إبراهيم عصمت مطاوع وواصف عزيز واصف، ص17 دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت 1982م.
- ¹¹ - دراسات في اللسانيات التطبيقية - حقل تعليمية اللغات - أحمد حساني، ص152 ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 2000م.
- ¹² - الدراسات الاجتماعية، زكي إبراهيم المنوفي، ص65، العلم والإيمان للنشر والتوزيع، (د.ت.ط).
- ¹³ - المدخل إلى التربية والتعليم، عبد الله الرشيدان ونعيم جعيني، ص312، دار الشروق، ط5 عمان 2006م.

- ¹⁴ - الدراسات الاجتماعية، زكي إبراهيم المنوفي، ص 65 ، العلم والإيمان للنشر والتوزيع، (د.ت.ط).
- ¹⁵ - مبادئ التربية وطرق التدريس، عبد المجيد عبد الرحيم، ص 19 وما بعدها، مكتبة النهضة المصرية 1965.
- ¹⁶ - شخصية المعلم وأدائه، علي راشد، ص 23 وما بعدها، دار الفكر العربي، مدينة نصر 1997.
- ¹⁷ - التربية العلمية وأسس طرق التدريس، إبراهيم عصمت مطاوع وواصف عزيز وواصف، ص 17 دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت 1982م.
- ¹⁸ - التعليم والمعلمون، علي علي سيد أحمد ص 71 ، دار الصابوني (د ت ط).
- ¹⁹ - مقالات في التربية والتعليم، واصف البارودي، ص 68 المكتبة العصرية، صيدا .
- ²⁰ - مقدمة ابن خلدون (عبد الرحمن)، ص 553 ، دار الفكر (د ت ط).
- ²¹ - التأخر المدرسي وطرق علاجه، منصور مصطفى، ص 18 ، سلسلة إصدارات مخبر التربية والتنمية، دار الغرب للنشر والتوزيع 2002م.
- ²² - نفسه ص 19 .
- ²³ - تربية وعلم النفس تشريع مدرسي، ص 37 ، مديرية التكوين، وزارة التربية والتعليم الديوان الوطني للتعليم والتكوين عن بعد الجزائر، 2007م.